

مناقشة

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

لبحث

الاتجاه السلفي الحديث

بين التأصيل والمعاصرة

للدكتور راجح الكردي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :
فجزى الله خيراً أخي الدكتور راجح ، لقد بذل جهداً طيباً وعالج هذا الموضوع بشمولية واسعة بدءاً من عصر رسول الله ﷺ إلى عصرنا اليوم ولكنني أرى أن ما عده الدكتور راجح مقدمة هو لب الموضوع ويمثل العمود الفقري في تعريف السلفية بكل ما تشمله هذه الكلمة فالصفحات الخمس الأولى في نظري والتي قسم فيها السلفية إلى سلفية زمانية وسلفية منهجية المضمون هي التي أوضحت لنا حقيقة معنى السلفية بكل أبعاد هذه الكلمة وأما ما وراء ذلك فلا يعدو أن يكون تطبيقاً وأمثلة .

وإني إذ أقف أمام هذا الذي اعتبره هو مقدمة وأعده أنا العمود في الموضوع أعود فأكرر شكري له وأعود وأؤكد أنه أوضح لنا حقيقة مضمون كلمة السلفية ولكنني أرى أن مارتبته وبنيته على هذه المقدمة لا يتفق معها قط ، فالمقدمة التي قرأتها بدقة وسمعتها الآن قضت بأن السلفية وهم ، وبأنه لا يوجد بين علماء المسلمين الملتزمين بالإسلام من يسمون سلفيين ومن يسمون بدعيين أو غير سلفيين وأنت بمقدمتك هذه قررت ذلك سواء تنبعت إلى ذلك أم لا .

فعندما تقول ، وهو حق ، أن السلفية لكي تكون متحركة حيث ينبغي أن تتحرك وثابتة حيث ينبغي أن تثبت ، ولكي تفهم المعنى المراد من النص ، ينبغي أن تخضع لمنهج . إذن فالسلفية خاضعة لمنهج . وأنا هنا أسأل هل هو انتاج فئة من علماء المسلمين اسمهم « المذهب السلفي » ؟ إننا لانشكل أن المنهج الذي نعنيه ونفهمه جميعاً هو ما يسميه العلماء اليوم بقواعد تفسير النصوص ، وهو ما كان يسمى : بعلم أصول الفقه .. هذه القواعد التي لا يستطيع الإنسان من دونها أن يتبصر بمعنى نص من النصوص ، ولا أن يدرك متى يلزمه النص بالثبات ، ومتى يدعو إلى المرونة والتحرك والتطوير والتبديل .

اذن فالسلفية محصنة بهذا المنهج تحصن وجودها وبهذا المنهج تمكن نفسها من الحياة المستمرة كما قال « ولعلني أعود فأسأل : من الذي رسم لنا هذا المنهج ؟ إنه من وضع علماء المسلمين جميعاً في الصدر الأول ، في العصر الذهبي ، وقد اشترك فيه لا أقول في وضعه ، لكن في اكتشافه وتدوينه سائر الأئمة الأربعة وتلامذتهم وان كنا نعلم أن للامام الشافعي في ذلك فضل التدوين .

وهذا المنهج فيه من القواعد ما هو متفق عليه فلا يجوز أن يحيد عنه إلا منحرف لا أقول بدعي بل هو ضال ، ولا أقول غير السلفي وفيه من القواعد ما لم يتفق عليه مكتشفوا هذا المنهج فمن اتبع أحد الشقين في هذه القاعدة فإن دائرة السلفية تشملته ، ومن اتبع الشق الثاني فإن دائرة السلفية تشملته أيضاً وأضرب مثلاً ، اذا أمكن تفسير الكلمة بالحقيقة فلا يجوز أن يصار فيها إلى مجاز ، وكل العلماء متفقون على هذا .

ولكن إذا طرحت مسألة وأمكن تفسير الكلمة فيها بالمعنى الحقيقي ، ومع ذلك كان لها معنى مجازي شائع لامع فأبي المعنيين نرجح ؟ لقد اختلف العلماء فبعضهم ومنهم الإمام الشافعي ، والإمام أحمد من قال إن الحقيقة تبقى هي الراجحة ومنهم من رأى أن المجاز الشائع أرجح وإلى ذلك مال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى . وأسأل : هل اتباع أحد الرأيين يصنف صاحبه في المذهب السلفي واتباع الرأي الثاني يصنف صاحبه من المذهب الآخر ؟ ولنسمه البدعي مثلاً ؟ أو غير السلفي ؟ لا .. إن هذه الدائرة كلها شاملة لكل من يتحرك تحت مظلة هذا المنهج اذن أقول يا أخي الكريم أنت في هذه الصفحات الأولى أوضحت لنا حقيقة أثلجت صدورنا وهي أن علماء المسلمين السائرين على المنهج المرسوم في رفض الأحكام الجاهزة واستنباطها مباشرة من كتاب الله وسنة رسوله كلهم سلفيون ولا أقتصر على كلمة سلفيين حتى لا يقفز إلى الذهن المفهوم المخالف بل أقول كلهم سائرون على صراط الله عز وجل وكلهم مهتدون بهدي الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ .

ونأتي إلى التطبيقات التي بنيتها على هذه المقدمة ووضعتنا أمام أمثلة ، من سلفية الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأسأل هل كان الإمام أحمد رافعاً لواء منهج اختصاص به ، وكان هو الذي أنتج هذا المنهج دون غيره من العلماء الذين عاصروه ؟ ما أظن أن الأمر كذلك وما أظن أن الإمام أحمد كان صاحب مثل هذا التفرد .

المثل الآخر الذي ضرب لنا هو ابن تيمية رحمه الله تعالى صاحب العقلية الفذة العالم الجليل والذي تعزز به عصور الإسلام من عصره حتى الآن ، ولكن ليس معنى هذا أنه رفع لواء سلفية ما وكان يسير عليه عبر خط ضيق . إن ذلك كان امتداداً لسلفية الإمام أحمد وليؤكد الباحث وجهة نظره ضرب لنا مثلاً بموقفه في وجوه الأعداء وهذا مثل طيب ، ولكن هل هذا حصر ابن تيمية في مذهب دون غيره من المسلمين ؟ ألم يقف هذا الموقف غيره أيضاً من العلماء ؟

إن هذا الموقف الذي وقفه ابن تيمية ، وقف مثله الإمام النووي « رحمه الله تعالى من الظاهر يُبَرس عندما طلب منه أن يفتيه أن يأخذ ضرائب من الناس بسبب حاجة الدولة إلى قتال التتر ونحوهم فكتب إليه أن في الدولة مصارف كثيرة تذهب هدرًا فجند هذه الأموال كلها ، واجبسها للجند فان أنت فعلت ذلك كان لك الحق بعد هذا أن تأخذ من فضول أموال الناس ، وقد اضطرته هذه الفتوى أن يترك دار الحديث ويعود إلى قريته « نوى » إلى أن توفي فيها .

ومثل هذا الموقف للإمام « العز بن عبد السلام » وأبي اسحق الشيرازي صاحب كتاب (المذهب) أيضاً له مواقف عظيمة في هذا الصدد ولا أقول هذا الكلام لأنقص به من مكانة ابن تيمية ولكني أريد أن أقول إنهم جميعاً أصحاب فضل وكلهم كانوا يسرون على منهج واحد ، ينطلق من هذا المنهج في قواعد تفسير النصوص والذي لم يشذ عنه إلا ظالم .

ولكن هذا المنهج فيه ماهو متفق عليه وفيه ماهو مختلف فيه . وضرب الأستاذ الكريم مثلاً لسلفية ابن تيمية رحمه الله تعالى ببعض فتاواه ومن ذلك أنه أفتى بأن الطلاقات الثلاث في مجلس واحد تعتبر طلاقة واحدة متبعاً في ذلك كتاب الله عز وجل وحاولت أن أفهم أن هذا موقف سلبي فوجدته يضطرنني إلى أن أقول إن الإمام « أحمد » كان في الوادي الآخر وأنه كان بدعياً لأنه لم يقل بهذا الرأي وكان يقول إن الطلاق الثلاث — وإن كان في مجلس واحد — يعد ثلاثة .

وأنا لا أخطئ ابن تيمية رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ولكني أقول إنه واحد ممن يتحركون في دائرة هذا المنهج وأنه رأى المسألة يتسع فيها مجال الاجتهاد فرأى أن الطلاق الثلاث في مجلس واحد ليس هو المعني ، بقول الله عز وجل : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ (سورة البقرة : آية ٢٢٩) بينما الأئمة الآخرون رأوا أن هذه الآية أعم من ما اجتهد فيه وادعاه الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى — فهم قد رأوا أن الآية تشمل صورتين اثنتين أن يقول الرجل في مجلس واحد لزوجته أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ، بذلك يكون الطلاق ثلاثاً إذا أردنا أن نتمسك بحرفية الآية وهذا الموقف وقفه الإمام أحمد وبقية المذاهب الأربعة ، بينما ابن تيمية رحمه الله تعالى رأى رأياً آخر يمكن أن تشمله الآية والكل خاضعون لهذا المنهج ، وليس هناك مايدعو إلى أن أصنف فلاناً من السلف ، لأنه قال قولاً يتفق وما أرى ، وفلاناً لايصنف من السلف لأن رأبي يخالف رأيه .

والأمثلة الأخرى التي ساقها لنا ، سواء منها مايتعلق بآراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو مايتعلق بما سماه السلفية المعاصرة ، اقترب الباحث بها من الكلام الذي قلته ولكنه لم يصل إليه .

ولقد نعى على من يدعون أنفسهم بالسلفية في هذا العصر ، أنهم متقوقعون في مضامين قديمة عتيقة وأنا أؤيده في ذلك لأنهم لايتحركون مع المنهج الذي إذا ربطنا انفسنا به ووجدنا أنفسنا أمام بوابة عريضة ورأينا جميع علماء المسلمين الذين ساروا على صراط الله عز وجل يسرون على طريق واحدة .

والنتيجة التي أريد أن أنتهي إليها هي أننا في عصر نتداعى فيه إلى توحيد الكلمة وإلى نبذ الشقاق وإلى تحطيم حواجز الفرقة وكلنا مجمع على أن هذه أقدم رسالة ينبغي أن يضطلع بها المسلمون فإذا كنا مجمعين على هذا فكيف يجوز لنا أن نخترع سبباً وهمياً من أسباب الفرقة بالوهم وبالخيال ؟ ونقول إنه موجود في تاريخنا الإسلامي ، وأنه يمتد إلى عصرنا اليوم مذهب سلفي ومذهب آخر بدعي ، لماذا نخترع من عندنا مالمسنا بحاجة إليه .

فالمسلمون كلهم فريقان : فريق ملتزم وفريق غير ملتزم ، والملتزم أيضاً قسمان : ملتزم معترف بتقصيره وخطئه ندعو الله له بالهداية ونشفق عليه ، ونقول هذا انسان غير ملتزم ونسأل الله عز وجل له الهداية . أما غير الملتزم المتبجح بعدم التزامه فهذا الإنسان أقول عنه ضال ، تائه .

أما الطرف الثاني وهم الملتزمون فكلهم سلفيون كلهم آخذون من رسول الله ﷺ ونعذر من اتخذ لنفسه طريقاً لم يتفق فيه مع فئة من فئات المسلمين المجتهدين وهذا مآدعوا إليه ، فالسلفية الحقيقية هي السلفية الزمانية كما قال الباحث في أول ما سمعنا منه ، وهذه السلفية الزمانية احتوت مسألة واحدة أو هكذا فيما أعلم وهي آيات الصفات في كتاب الله عز وجل ، فالذين عاشوا في القرون الأولى آثروا أن يفسروها كما هي وأن لا يقتحموا إليها بأي تأويل وأما الذين جاءوا من بعد فإنهم أولوا . وقيل عن الرأي الأول إنه رأى السلف فكان أصحابه سلفيين وأما عن الرأي الثاني فقبل مذهب الخلف وكان أصحابه الخلفيين إن صح التعبير ولكن هذه المسألة كما قال الأخ المحاضر تخضع للسلفية الزمانية وأرى أن المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى أن نقف عندها خاصة ، إذا أخضعناها للمنهج الموضوعي بأن الأصل في الكلام الحقيقة ويصير إلى المجاز إذا احتمله وهي مسألة خلافية .

ونحن نعجب عندما نجد غلاة يكفرون ابن تيمية رحمه الله ويقولون إنه كان مجسداً ولقد بحثت طويلاً كي أجد الفكرة أو الكلمة التي كتبها أو قالها ابن تيمية والتي تدل على تجسيده فيما نقله عنه السبكي أو غيره فلم أجد كلاماً في هذا قط كل ما وجدته أنه في فتواه يقول : إن لله يداً كما قال واستوى على العرش كما قال ، وله عين كما قال ، ورأيت اناساً يكفرون الإمام أبا الحسن الأشعري لأنهم يقولون إنه معطل ، إنه متأول ، وبحثت ورجعت إلى كتبه وإلى آخر ما كتب وهو كتاب (الإبانة) فرأيت أنه هو الآخر يقول كما يقول ابن تيمية ، وقرأوا كتاب الإمام « أبي الحسن الأشعري » « الإبانة » الذي يقول فيه : « تؤمن أن لله يداً كما قال وأنه استوى

على العرش كما قال « إذن فلماذا نحاول أن نعظم وهما لا وجود له ؟ ولماذا نحاول أن ننفخ في نار شقاق ؟ والله سبحانه وتعالى سيحاسبنا على ذلك .

نفعل هذا في الوقت الذي أرى فيه جيراناً لنا من ناحية الشرق يرفعون — إن حقاً أو بدون حق — لواء توحيد الأمة الإسلامية ، ونحن أولى بهذا فنحن موحدون فعلاً ونحن لم نقم في يوم على شقاق ولم نكن في يوم ما على خلاف وكل ما بيننا من خلاف إنما هو أوهام . وأسأل الله عز وجل أن يجمعنا على صراطه وأن يهدينا إلى سواء السبيل وصراطه المستقيم والحمد لله رب العالمين .

